جامعة الملك سعود
كلية الآداب
مجلة الآداب
ردمد (ورقي): ٣٦٢٠-١٠١٨
ردمد (النشر الإلكتروني): ٨٣٣٩-١٦٥٨

King Saud University
College of Arts
Journal of Arts
ISSN (Paper):1018-3620
ISSN (Electronic):1658-8339

مجلة الآداب، مج (٣٣)، ع (٢)، ص ص ٢٧-٣٧، جامعة الملك سعود، الرياض (٢٠٢١م/ ١٤٤٢هـ)
Journal of Arts, Vol. 33 (2), pp 27-37, © King Saud University, Riyadh (2021 /1442H.)

المُلْغِز والمُعَمّى في أخبارِ المجالسِ في كتاب الأغاني للأصفهاني: دراسةٌ في الأشكالِ والوظائفِ

مي عبد العزيز الوثلان

أستاذ الأدب القديم المساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الملك سعود

(قدم للنشر في ١٠/ ٣/ ١٤٤٢هـ، وقبل للنشر في ٢٣/ ٧/ ١٤٤٢هـ)

الكلمات المفتاحية: مجلس، لغز.

ملخص البحث: ترصد هذه المقالة جانبًا مما تحفل به من مجالس الأنس، ونعني به الاحتفاء بالألغاز والمعميّات، وقد ذكرت الأخبار أن الغاية التي قامت عليها تلك المجالس هي الحاجة إلى التسلية وطلب المتعة، ومن هنا جاءت أفانين المتع المادية والحسيّة، وتعددت وسائل إنتاجها، واندرجت الألغاز والمعمّيات في جملة المتع الفكرية للمجلس.

وتتناول هذه الورقة الألغاز والمعميات باعتبارها جنسا أدبيا، وترتكز على سؤال أساسي مفاده العلاقة بين المجلس بوصفه مكونا مقاميا وبين هذه الأقوال الملغزة والمعمّاة، ومن ثم الكشف عن دور المقام المجلسي في إنتاج القول الملغز، والوظائف التي تؤديها الألغاز والمعمّيات في أخبار المجالس.

وقد اخترنا كتاب (الأغاني) (للأصفهاني، ت٣٥٦هـ) للوقوف على المعمّى والملغز في مجالس الأنس، ومن ثم مقاربتها مقاربة تداولية. وخلصت الدراسة إلى أن تواتر الألغاز في أخبار المجالس نتيجة اختيار واع من رواد المجلس، فالألغاز تنشأ في مقام التخاطب لأسباب مختلفة، من بينها ما يفرضه المجلس من تقاليد ورسوم بالإضافة إلى إكراهات المقام ورهاناته المتنوعة.

ولأن الألغاز تشير إلى المعنى دون أن تصرح به، فقد مثلّت أداة طيعة لتناول بعض الموضوعات المسكوت عنها، والتعبير عنها بطريقة موارِبة، وقدرتها على التأثير في المخاطب، ونقله من التجهم والعبوس إلى السرور والانشراح، بالإضافة إلى ما تنطوي عليه الألغاز من دلالات اجتماعية وفكرية وحضارية.

Riddles and Expression of Hidden Meaning in Anecdotes of Majalis: The Forms and Functions

Mai Abdul Aziz Al-Watlan

Assistant Professor of Ancient Literature, Department of Arabic Language and Literature, College of Arts, King Saud University

(Received: 10/3/1442 H, Accepted for publication 23/7/1442 H)

Keywords: Riddles, majalis.

Abstract. This research article discusses a prominent aspect of the affable social gatherings (majalis), which is the significant role of riddles and the expressions of hidden meaning. It has been conveyed that the purpose of these gatherings in majalis is the need for entertainment and seeking pleasure. Therefore, materialistic and sensualistic techniques were utilized, and riddles and expressions of hidden meaning were included in that atmosphere as a part of the intellectual pleasures of those majalis.

This paper deals with riddles and expressions of hidden meaning as a literary genre. It demonstrates the relationship between majalis as a situational component and those expressions and riddles. Further, it reveals the role of majalis in producing riddles and expressions of hidden meaning besides illustrating their functions in majalis' stories.

I chose the book "Al-Aghani" by Abu Faraj Al-Isfahani (967) to study riddles and expressions of hidden meaning within the affable social gatherings in majalis, and to apply a pragmatic approach to tackle these aspects. The study concluded that the frequency of riddles in the anecdotes of majalis is a result of a wise choice, since riddles arise in such atmospheres of communications for various reasons, including what majalis impose such as traditions and protocols as well as some necessary positions.

Since riddles indicate the meaning implicitly, they represented a useful tool for dealing with some taboos and expressing them in an equivocal manner, for its ability to influence the addressee, and transfer him/her from frowning to pleasure, in addition to the social, intellectual and civilizational connotations it involves.

تزخر المجالس باختلاف أنواعها وموضوعاتها بالأقوال المعمّاة والألغاز المقصودة لذاتها، وكأن الألغاز والأحاجي تجلّ من تجليات مجلس الأنس والسمر، ونعني بالألغاز تلك المواطن التي اختار قائلوها العدول بخطابهم من الوضوح والظهور، والسعي لتحقيق وظيفتي الفهم والإفهام إلى الغموض والتواري والتعمية، ولعلّ انتشار الألغاز والمعمّيات في المجالس انتشارًا لافتًا للنظر داعٍ إلى التساؤل عن العلاقة بين المجلس (بوصفه فضاء ثقافيًا واجتماعيًا) وهذا النوع من الأقوال، وما الوظائف التي تؤديها الألغاز والأحاجي في أخبار المجالس؟

وقد اخترنا بعض الأخبار التي وردت في كتاب "الأغاني" (الأصفهاني، ٩٦٧) للوقوف على المعمّى والملغز في مجالس الأنس ومقاربتها مقاربة تداولية، والباعث على اختيار "الأغاني" مدونة للدراسة يتمثل في تضمنه عددًا كبيرًا من أخبار مجالس اللهو والأنس، وهذا يمكننا من أن نرصد رصدًا دقيقًا أثر مقامات التخاطب في إنتاج اللغز، وكيفية اشتغال الألغاز في المجالس، وذلك وفق ثلاثة محاور: أولها التعريف بالألغاز، وثانيها دور المقام المجلسي في إنتاج القول المعمّى أو الملغز، وثالثها متعلق بوظائف الألغاز والمعمّيات في أخبار المجالس.

التعريف بالألغاز :

وردت عدّة مصطلحات في الكتب الأدبية والدراسات النقدية للدلالة على معنى الغامض والمتواري، من أبرزها مصطلحا الملغز والمعمّى، ولهما وجوه أخرى منها: الأحجية، والملاحن، والإلباس، والاشتباه، والمبهم، والمحال، والمضمر، والمسكوت عنه، والكناية، والتورية، والرمز. هذه المصطلحات بعضها متصل بالحقل اللغوي الدلالي، وبعضها متعلق بالجانب البلاغي، ومنها ما يعد بمثابة الأساليب التعبيرية التي تتوسل بها الأجناس الأدبية جميعها، ومنها ما يعد جنسًا أدبيًا. يصنف ابن علي (٢٠١٣) الأجناس الوجيزة فيقول: "تختلف الألغاز والأحاجي عن أجناس سردية أخرى ببحثها الأسلوبي الذي يلحقها عبر صيغ عملية بالشعر، فالأبنية المتوازية والأسجاع والجناس واللجوء إلى التشبيه أو الاستعارة طرائق قارّة في الألغاز والأحاجي". (ص ٣٦٠).

ولما كانت الدراسة تقوم على الأخبار الملغزة والمعمّاة، فإننا سنعرض بإيجاز إلى بيان مصطلحي الملغز والمعمّى لغةً ومفهومًا، وتمييزهما عن بعض المصطلحات المجاورة لهما.

جاء في لسان العرب أن: " ألغز الكلام وألغز فيه: عمّى مراده وأضمره على خلاف ما أظهره". (لسان العرب، مادة لغز) وذكر ابن منظور في معنى التعمية: "عمي عليه الأمر: التبس، والتعمية: أن تعمي على الإنسان شيئا فتلبّسه عليه تلبيسًا. وفي حديث الهجرة: لأعمّينّ على من ورائي، من التعمية والإخفاء والتلبيس، حتى لا يتبعكما أحد". (لسان العرب، مادة عمي).

واللغز في الاصطلاح: "ما يستخرج معناه بالحدس والحزر، وعلم الألغاز علم يتعرف منه دلالة الألفاظ على المراد دلالة خفيّة في الغاية، لكن لا تنبو عنها الأذهان السليمة، بل تستحسنها وتنشرح إليها". (خليفة،١٩٩٢، ١ج،ص١٤٩).

قال ابن الأثير (١٩٦٢) اللغز هو: " كلّ معنى يستخرج بالحدس والحزر، لا بدلالة اللفظ عليه حقيقة ولا مجازًا، ويفهم من عرضه". (٣ج، ص٨٥). وقد وصف ابن رشيق (١٩٨٢) في "العمدة" اللغز بقوله: "من أخفى الإشارات وأبعدها اللغز، وهو أن يكون للكلام ظاهر عجب لا يمكن، وباطن ممكن غير عجب". (ج١، ص٣٠٦) واللغز أيضا "استعارة أو مجموعة من الاستعارات التي تم استعمالها بشكل غير شائع وتفسيرها ليس بديهيًا" (جورج، ٢٠٠٨، ص٩٥).

وقد ميّزت دائرة المعارف الإسلامية بين ثلاثة مفاهيم في تناولها لمادّة لغز (Lughz) نذكرها لرصد الحدود بينها، ونقف على ملامح التداخل والتقارب، وهي على النحو التالي:

- اللغز ويُصاغ في العادة نظمًا، ويتميز بأنه يطرح على هيئة سؤال.
- المعمّى ويختلف عن اللغز في أن صياغته تخلو من السؤال، وإن كان المعنى العام قد استتر وتوارى، وذلك باستخدام عدّة طرائق منها: قلب الحروف، أو التلميحات المتعلقة بالنطق.
- الأحجية وتعرّف بأنها: لعبة تخمين بسيطة كأن يُقال " خمّن ما بيدي" وهي قريبة جدًا من الألغاز.

وقد خلصت دائرة المعارف الإسلامية إلى أن المعميات والألغاز والأحاجي ثلاثة مصطلحات عربية تستخدم بطريقة مجازية غالبًا، ولكنها تشير (بصفة أساسية) إلى ضروب ثلاثة من اللعب بالألفاظ، ولكنها ضروب متقاربة في النوع إلى حدّ ما. BOSWORTH, DONZEL, LEWIS, & PELLAT, (1986, P.807)

ومن هنا تختلف المعميّات عن الألغاز والأحاجي بافتقارها إلى صيغة الاستفهام أو الاستجواب، في حين تتداخل الألغاز بالأحاجي، ولمنطلقات المتكلم ومقاصده في إرادة التعمية من عدمها دور في الفصل بين هذه المصطلحات، كما أن التمييز بينها أيضًا قائمٌ على بيان الأصل والفرع والأعم والأخص، فالمعمّى هو الأصل الذي تولدت منه الأنواع الأخرى. (البغدادي، ١٩٩٧، ج٣، ص١٦).

والناظر في جملة الحدود التي أشرنا إليها، يلاحظ أن جميع المصطلحات تشترك في معنى المواربة والتخفية، فهي تحتاج إلى العقل الحصيف وكدّ الذهن، وإنما وقع الاختلاف بينها بسبيل القالب الشكلي الذي وُضِعت فيه؛ فإن كان الكلام على هيئة السؤال كان أقرب إلى اللغز، وإن خلا منها كان أقرب إلى المعمّى.

وقد دلّت نصوص المدونة على نزوع روّاد المجلس إلى الغامض والملغز المتواري لدواعٍ مختلفة، وفي هذا الاطراد ما يلمح إلى الصلة بين المجلس واللغز، ويشرّع طرح السؤال عن العلاقة بينهما، ولعلّ في الكشف عن دور المجلس في إنتاج هذه الألغازما يجيب عن هذا التساؤل.

دور المقام المجلسي في إنتاج الألغاز:

يعد المقام من العوامل الأساسية التي يراهن عليها الخطاب الأدبي في تشكله، ونعني بالمقام: المكان الذي تتأسس فيه الإكراهات المحدّدة لرهان التبادل، تلك الإكراهات الآتية في آن واحد من هوية الأطراف، ومن المكانة التي يحتلونها في التبادل (بصفة نفسية واجتماعية)، ومن الغائية التي تربط بينهم (بصفة المرامي) والقول الذي يمكن استحضاره، والظروف التي يتحقق فيها (شارودو وما نغونو، ٢٠٠٨، ص٥٢٠) والمقام بهذا المعنى يضمّ مختلف عناصر العملية التخاطبية التي تتضافر فيما بينها لتشكيل المجلس وبناء خطابه.

والألغاز والأحاجي شكل من الأشكال البسيطة أو الوجيزة التي أنتجها الخطاب اليوميّ. (ابن رمضان، ١٩٢٢، ص٩٣) حين يتعذر على المتكلم التعبير بلغة مباشرة، فيلجأ إلى لغة المجاز والمواربة، فهي وجه من وجوه التدبير وحسن التلخص، وقد ارتبطت الألغاز (نشأة وتداولا) بهذا الفضاء الاجتماعي والمقام التواصلي المخصوص، وفيه من السمات والمكونات ما مكّن الألغاز من الانبثاق عن المجلس في معارض متعددة في قصائده وفي أخباره ورسائله.

وفي علاقة الألغاز والمعمّيات بالمقام تتجلى الطبيعة الحوارية للمجلس بين طرفين متفاوتين اجتماعيًا، وما يترتب على هذا التمايز من ضرورة مراعاة سنن اللباقة والتأدب التي يفرضها هذا المقام، وما يخلّفه من أثر في تحديد نوع الخطاب، إلى جانب ذلك ما يمكن أن ينتج عن أحاديث المجلس المتناسلة من مزالق ومفاجآت، وما يطرأ في الحوار من أسئلة غير متوقعة هي فخاخ نَصَبَها الحساد والمتآمرون والمنافسون ممن تعجّ بهم المجالس، ومن هذا التفاعل تجاه ما يتلفظ به المتكلم، ومايصدر عن أعضاء المجلس من ردود واقتراحات وغيرها، تولّد خطاب مخاتل، ينزع إلى مراوغة القيود والإكراهات.

فالألغاز لا تستخدم لتخزين المعرفة فقط، بل كذلك لجذب الآخرين إلى معركة لفظية أو ذهنية، إذ يمثل نطق اللغز تحديًا للمستمعين كي يقابلوه بمثل أفضل للمقام أو يناقضه في المعنى، والمفاخرة بالقدرات الشخصية أو مقارعة الخصوم بسياط الكلام المؤلمة عن الأمور التي تظهر باستمرار في المجابهات بين الشخصيات (أونج،١٤٤٩، ص٨٨) فالإلباس والتعمية، اختيار واعٍ مدبر استوجبته اللحظة للانعتاق من أسر المقام والتغلب على المأزق.

ويتجلّى القول الملغز في مجالس اللهو والأنس بوصفه ضربًا من الحوار الظريف الذي يحقق المتعة ويخلق المؤانسة، ويرى حازم القرطاجني أن تدليس الكلام والتلاعب بالمعاني يستحسنان في "الهزل ومايقصد به الإضحاك أو التهكم ... وكذلك الأقاويل التي يقصد بها المشاجرة والمكابرة، لأن مواطن الهزل والضجرة تحتمل من قلّة المبالاة

بحقائق الكلام ما لا تحتمله مواطن الجد والاعتدال" (القرطاجني، ٢٠٠٨، ص٨٤) ومما يؤكد وظيفة الألغاز الهزلية إندراجها في المصنفات القديمة مع الفكاهات والملح، ففي العقد الفريد لابن عبد ربه (٢٠١٣) جاء اللغز مضمنًا في باب الفكاهات والملح (ج٨، ص١٦٨) كما ترد الأقوال الملغزة في المجالس الجادة كالمجالس الفقهية والنحوية، وقد تتطور بمقتضى هذه المقامات إلى نوع من المحاورة والمناظرة.

ويتفرع عن الانغماس في أجواء المجلس الاحتفالية ما يهذي به الشارب من كلام غير مفهوم، والتلفظ بعبارات قد تكون خالية من المعنى، فهي في وجه من وجوهها شبيهة بالمعميات، وتتجلى هذه الظاهرة في مجلس يزيد بن عبد الملك، فهو كثيرًا مايردد عبارة "الدخن بالنوى، والسمك في بيطار جنان" (الأغاني،١٩٩٢، ج١٥، ص١٣٠) مبتهجًا بلذته ولهوه.

وهذا يكشف عن أثر الدواعي المقامية وفعاليتها في إنتاج الألغاز وتنوعها، وهو ما سنفصله فيما يلي:

سلطة صاحب المجلس:

تتأتّى الألغاز والمعمّيات من قيد المقام وما يفرضه على الجلساء من تقاليد في المخاطبة وغيرها، فكثيرًا ما تسوّغ سلطة صاحب المجلس نزوع مخاطبه إلى المواربة والإبهام، على سبيل المثال يقول هذا الخبر: "تحدث المسدود في مجلس المنتصر بحديث، فقال له المنتصر: متى كان ذلك؟ قال: ليلة لا ناوٍ ولا زاجر، يُعرّض له بليلة قتل فيها المتوكل، فأغضى المنتصر واحتمله" (الأصفهاني،١٩٩٢، ج٢٠، ص٣٠٧) في قول المسدود: "ليلة لا ناوٍ ولا زاجر" إشارة ضمنية لمقتل المتوكل، وتعريض مبطن بشناعة هذا الفعل، ولأن المسدود يدرك خطورة التحدث في هذه الموضوعات فقد ألمح إلماح المتوجس الحذر.

ونرى في الخبر الذي يقول: " كنت واقفًا على رأس الأمين وبي حرّ شديد، فخرجتْ عريبٌ فوقفت معي، وهي تنظر في كتاب فما ملكتُ نفسي أن أومأت إليها بقبلة، فقالت: كحاشية البرد، فو الله ما أدري ما أرادت، فقلت: قالت لك طعنة. قال: وكيف ذاك؟ قلت: أرادت قول الشاعر:

رمى ضرع نابٍ فاستمرّ بطعنةٍ كحاشية البرد اليماني المسهّم" (الأصفهاني،١٩٩٢، ج٢١، ص٨٠).

فهنا انتهك أحد الجلساء قواعد المجلس ومايفرضه من تأدب في حضرة الخليفة، عندما أشار إلى الجارية بقبلة؛ ولذا فقد سلكت عريبٌ في إجابتها مسلكًا مواربًا، وعبّرت عن استيائها بطريقة ضمنية، عندما راهنت على عبارة تلمح إلى غرضها ولاتصرح به، فاستعارة (حاشية البرد) من نصّ شعري للرد على إيماءة الرجل، واجتزاء هذه الجملة من الأبيات الشعرية، وتنزيلها في سياق مختلف طريقة لا تخلو من مكر، إذ إن دلالة الألفاظ المعجمية لاتفيد كثيرًا في الوصول إلى المعنى المراد، فهذه الجملة ذات حمولة إيحائية لاتدرك إلا في سياقها الأصلي.

إنّ هذا اعتمادٌ للخطاب الملغز والرمزي وسيلة لإثبات التفوق، فالجارية حين تلجأ إلى الكلام الغامض الذي ينفتح على دلالات متعددة تبرهنُ على إمكاناتها الذهنية، فالألغاز والمعميات في بعض المواطن وسيلة للنيل من الخصوم، وفي أخرى أداة لاستفزاز المتلقي وتحديه، ومسلك للمدراة والتعتيم، ويرى البهلول(٢٠١٠) أن المواربة والالتواء من مقومات العملية التواصلية، مرجعا ذلك إلى عوامل عديدة أهمها اختلاف مقامات التخاطب، وتفاوت مؤهلات المتخاطبين، وتنوع أجناس الخطاب، فالمشاركون في الحوار مختلفون متفاوتون، وهم بين أصدقاء متعاونين وأعداء مناورين ... وهم في مختلف تفاعلاتهم القولية يلجؤون إلى حجب الحقائق وإخفاء المقاصد، ويعمدون إلى المواربة والمغالطة والتضليل، ونثر العوائق ورسم الحدود لتعطيل الحوار (ص١٢٨) فالقول الملتبس والملغز متشكّل من نوع العلاقة بين المتخاطبين لأداء وظائف معينة.

ولعلّ مراعاة التأدب واللباقة، وماينجم عنهما من مواراة وتعمية يتأكد في مخاطبة رواد المجلس للملوك، من ذلك قول العتّابي: "يا أمير المؤمنين، الإيناس قبل الإبساس" (الأصفهاني،١٩٩٢، ج٣، ص١٢) وفيه يتوسل العتّابي بالمثل العربي المشهور، ويطوّع لغته مراعاة لمقام السلطان، فهذه الكناية تجري إلى غاية، وهي حمل المأمون على التكرم بالعطاء والإغداق على سائله، وتفصح في الوقت نفسه عن تلطّف العتّابي في طلب النوال.

وتقود هذه الأخبار إلى ملاحظة ذكاء الجلساء ونباهتهم وفطنتهم في التعامل مع تقاليد المجلس، والتغلب على إكراهات السياق بضرب من الأقوال الملغزة والمعماة الجارية إلى التحلل من قيد المقام والتحيل على السلطة، وهذه الحيلة اللغوية تؤمّن المتلفظ بها وتضمن له السلامة؛ لأن "المتكلم قادر باستمرار أن يدّعي بأنه لم يقصد قوله"(أوريكيوني، ٢٠٠٨،ص٤١).

ومما سبق ذكره، يتجلى لنا أحد الداوعي التي أنتجت الألغاز والمعمّيات، ونعني به تقاليد المخاطبة في المجلس، وما تتضمنه من قيود وإكراهات، ومن ثمّ توسل الجلساء بهذه الألغاز لتجاوز تلك القيود والضوابط، ومن بينها تناول الموضوعات المحظورة كما يكشف المحور التالي.

القول في المحظور:

تستجيب الأحاديث في مجالس الأنس إلى الأعراف الاجتماعية والأخلاقيات السائدة، ويتأكد ذلك في ملامسة الموضوعات المحظورة، إذ تنعدم الأقوال المباشرة والصريحة لتحلّ محلها الكنايات والاستعارات، ومن هنا تبرز قدرة الألغاز والمعميات على اختراق المحظور وانتهاك الممنوع، فمن ذلك ماجاء في الأغاني هذا الخبر: "فقال له يا أبا نواس: هلاّ أضجعته، فقال: وقع الفعل عليه فانتصب". (الأصفهاني،١٩٩٢، ج٢٥، ص٢٩٨) وقوله:" هذا يوم الغارات في الحارات" (الأصفهاني،١٩٩٢، ج٢٠، ص٣٥٤) وفي هذين الخبرين لجأ أبو نواس إلى اللغة الإيحائية، والتلميحات الماجنة للكشف عن بعض الممارسات المستهجنة، فالحديث عن الجنس ضرب من خرق المحظور، وكشف المغيب للمسكوت عنه.

وإذا كانت الكنايات قائمة على التلطف في التعبير عن هذه الموضوعات، فإن بعضها الآخر يقترب من المباشرة والتصريح، فلو نظرنا مثلا في محاجاة وردت في الأغاني بين جارية ظريفة للبرمكي وشاعر جلّ شعره في الغزل والتشبيب بالمذكر، وكان مشغوفًا بالغلمان والشراب، يقول فيها:

حاجيتك يا حسنا ء في جنس من الشعر
وفيما طوله شبر وقد يوفي على الشبر

إلى آخر الأبيات

فغضب مولاها وتغيّر لونه، وقال: أتفحش على جاريتي وتخاطبها بالخنا! فقالت: خفّض عليك، فما ذهب إلى ما ظننت، إنما يعني القلم (الأصفهاني،١٩٩٢، ج ٢٠، ص٣٥٨).

اعتمد الشاعر في هذه المحاجاة لغة خادعة ومضللة، فإذا كانت الاستعارات والرموز في هذه الأبيات تهتك المحظور، وتتمرد على الرقيب وتبوح بمعان جنسية، فإنها في الوقت نفسه تمكّن من الملاوصة بادعاء معنى آخر، وهو ماذهبت إليه الجارية كياسة وتأدبًا مع مولاها. فقولها :"خفض عليك، فما ذهب إلى ماظننت، وإنما يعني القلم". يتضمن قراءة مختلفة لأحجية الشاعر الماجن، فالجارية توجه الخطاب بما تراه مناسبًا، وهي بذلك تدفع توهم سيدها وتبدد ظنونه، وتكفل الخروج من الموقف المتأزم.

ونفهم من هذه المحاجاة أن الأبيات يمكن أن تحيل على أكثر من معنى، فالجارية رأت أن المقصود هو القلم، واختلف الأمر مع مولاها، لأنه احتمل أن يكون المراد معنى فاحشًا، فالقسم الوارد في آخر بيت من المحاجاة يزيد من احتمالية الفحش، وبالإضافة إلى ذلك فإن ما صنع هذا المعنى في ذهن البرمكي يعود إلى السياقين المقامي والثقافي، فالخلفية التي انطلق منها البرمكي في تأويله، هي خلفية تتدخل فيها الأفكار المسبقة أو النمطية، فالمألوف أن حديث الجواري متصف بالجرأة، بالإضافة إلى ماذكرناه من أن الحديث المنطوي على فحش أو مجون غالبًا ما يصاغ مضمنًا أوملمحًا إليه، يقول ميتز (د.ت) عن أدب تلك الحقبة الزمنية: "فرفع الفحش رأسه بعد أن كانت قد أخمدته الروح العربية وأخرجته من الأدب العربيّ؛ لأن الذي كان يسيطر على النزعة الأدبية هم البدو الذين هم أكثر عفة واعتدالا"(ج١،ص٤٩٩)؛ لذا فتوجيه الدلالة رهين "طبيعة مقام التفاعل والعلاقة التي تربط المتكلمين المتفاعلين ... وثمة عوامل أخرى تجدر الإشارة إليها على غرار طبيعة ترقبات المحاور في ما يتعلق بفحوى خطاب المتكلم". (أوريكيوني، ٢٠٠٨، ص٣٣٣)؛ لذا تتعدد القراءات والتأويلات لاختلاف المتلقين في القدرة الذهنية وفهم المقاصد والنوايا والاعتبارات.

ويقود الحديث عن الاستعارة والرمز والكنايات بوصفها نوعًا من التلاعب اللفظي، إلى الإشارة إلى أنواع أخرى مشابهة، ونعني بها الجناس والتصحيف.

المجاورة والمشاكلة اللغوية:

تناسلت مجموعة من الألغاز والمعميات في مجالس الأنس، عن طريق المجاورة والمشاكلة اللغوية باستخدام الجناس والتصحيف، وهذا النوع من أنواع المعميات يعتمد على ذكر مفاتيح معينة تنبئ عن الحروف التي تتكون منها الكلمة المرادة، أو تلمح لها عن طريق قلب الحروف وتغيير ترتيبها وما إلى ذلك.

وهو ما نجده في الخبر التالي، يقول الأصفهاني: "قدم أبو العبر في أيام المستعين، وجلس للنّاس، فبعث إسحاق بن إبراهيم، فأخذه وحبسه، فصاح في الحبس، لي نصيحة، فأُخرج، ودعا به إسحاق، فقال: هات نصيحتك، قال: على أن تؤمنني؟ قال: نعم، قال: الكشكية -أصلحك الله- لاتطيب إلا بالكشك. فضحك إسحاق وقال: هو -فيما أرى- مجنون، فقال: لا، هو امتخط حوت، قال أيش هو امتخط حوت؟ ففهم ما قاله وتبسّم ثم قال: أظن أني فيك مأثوم. قال: لا، ولكنك في ماء بصل" (الأصفهاني،١٩٩٢، ج ٢٣، ص٢١٠).

أفرزت المفارقة بين المقام والمقال قولًا ملتبسًا شبيهًا بالنادرة، فسياق الخطاب يقتضي تقديم نصيحة في مجلس المستعين، وممّا يشف عن خطورة هذه المواجهة بين الخليفة وأبي العبر، طلبه الأمان قبل أن يكشف عن نصيحته فإذا به يتلاعب بالألفاظ فيقلب مجنون إلى امتخط حوت، ويجيب عن مأثوم بماء بصل، مما أدّى إلى نسف المقام الجاد وقلبه إلى مقام هازل، مدللا بذلك على حمق مفتعل.

ومثله هذا الخبر في التلاعب بالكلمات "كتب إبراهيم بن المهدي إلى أبي: أي شيء تصحيف: " لا يريح مثل الأسنة" فكتب إليه أبي: تصحيفه "لايرث جميل إلا بثينة" فكتب إليه: وي منك!" (الأصفهاني،١٩٩٢، ج٥، ص٤٣٧). ولايخفى أن التصحيف يعتمد على طريقة رسم الحرف وشكله، ومن ثمّ تكمن المراوغة في فكّ هذه الرموز وإعادة إنتاجها بدلالة مختلفة.

ويمكن أن نلحق بهما رسالة كتبتها جميلة المغنية اعتذارًا عن دعوة وجهت إليها إذ "دعت بدواة وقرطاس وكتبت إليهم سطرًا واحدًا: (بسم الله الرحمن الرحيم) أردت، ولولا، ولعلي. ووجهت الرقعة إليهم، فلما وصلت قرأوها، وعيوا بجوابها، فأخذها إبراهيم بن المدبر، فكتب تحت أردت "ليت" وتحت لولا " ماذا؟" وتحت لعلي " أرجو" ووجّه بالرقعة إليها"(الأصفهاني،١٩٩٢، ج٢٢،ص١٧٥) عوّلت جميلة في فكّ مغاليق رسالتها الموجزة على فطنة المتلقين، وكأنها تختبر بها ذكاءهم وتتحسس من خلالها مدى طرافتهم وبراعتهم، من هنا كان لرسالتها دور في حثّ ابن المدبر على أن ينتهج نهجا شبيها فكتب ردًا يشاكل رسالتها، فقد تبين له مغزى رسالتها بالجمع بين دلالة الكلمات، فـ"أردت ولولا ولعلي" تشف عن رغبة في إجابة الدعوة لولا عائق ما؛ لذا جاء ردّ ابن المدبر بـ" ليت وماذا وأرجو" وحاصلها تساؤل عن عائق المجيء وإلحاح في طلب الزيارة.

تبين لنا مما تقدم فاعلية المقام في إنتاج الألغاز وتنوعها، وبرز قصد منشئ اللغز وغرضه من طرح هذه الأقوال الملتبسة في المجلس، وسنقارب في مايلي هذه الملفوظات في سياقها التواصلي كاشفين عن تأثر المتلفظ بهذه المقامات، وإذا كانت الغاية الأساسية من الألغاز تتمثل في الاختبار والمساءلة والمباراة، فإن لهذه الغاية ما يرفدها من غايات ومقاصد عبّرت عنها تلك الأقوال، ونجملها في ما يلي:

التحايل :

تمنح الألغاز والمعميات هامشًا من الحرية للمتكلم في قول مايشاء دون أن يتحمل تبعات قوله، فالدلالات المضمرة والمقاصد غير المعلنة في هذه الأقوال تسمح بالإنكار والتنصل، وقد حضرت الألغاز والمعميات في بعض المجالس كونها حيلة لغوية، يمرر من خلالها المتكلم موضوعاته ويصل بها إلى مراميه.

ومن الحيل ما كشف عنه خبر أبي العبر في مجلس المستعين، فأبو العبر يتوخى كلامًا ملتبسًا غامضًا ليوهم بحمقه وغبائه، فكأنه ينثيء بـ" الكشكية -أصلحك الله- لاتطيب إلا بالكشك" فعلا لغويا من قبيل طلب العفو والخروج من السجن، وقد ضمنت هذه الطريقة المواربة

تعاطف المستعين الذي يظهر في قوله: "أظن أني فيك مأثوم" (الأصفهاني،١٩٩٢، ج ٢٣، ص٢١٠) وقد لفت العتّابي الخليفةَ المأمون بقوله: "يا أمير المؤمنين الإيناس قبل الإبساس" (الأصفهاني،١٩٩٢، ج١٣، ص١٥) إلى أمر قد غفل عنه، وهو أن الإقبال بالمزاح والمداعبة متولّد عن طول المعاشرة والألفة، ومن ثمّ شكّل المثل فعلًا لغويًا يسفر عن ما يكتنف العتابي من شك وارتياب، ويضمر في الآن نفسه طلب ما يخفف وحشته ويزيد من أنسه ويسهم في تجسير المسافة بينه وبين الخليفة.

نلاحظ من نصوص المدونة أن الحيلة مستعملة في المقامات الجادة والهازلة، جارية على لسان المهمش والضئيل اجتماعيًا، فهي من إفرازات المواجهة بين القوي والضعيف أو الخاضع والمهيمن، وخلف تلك المواجهات تكمن داوفع ومقاصد خفية أخرى من بينها الإفحام وإظهار التفوق.

الإفحام وإظهار التفوق:

أسهمت العلاقة القائمة على التحدي والمنافسة بين الجلساء في لبس بعض أقوالهم بلبوس الغموض لإثبات الذات وإبراز التفوق، ونتبين في خبر عريب السابق احتماءها بالملغز في مجلس الخليفة، فقد صنعت من "حاشية البرد" (الأصفهاني،١٩٩٢، ج٢١، ص٨٠) شفرة لغوية، وأحجية لم يستطع الرجل حلّها، وعريب بذلك تنتقص من الآخر وتنتصر لنفسها بأحجية تميز بين من يمتلك الحذق والذكاء والمعرفة ومن لا يمتلكها.

ويمكن أن يندرج في هذا الإطار الإفحامي خبر المسدود مع المنتصر، فقد ولّد سؤال المنتصر "متى كان ذلك" (الأصفهاني،١٩٩٢، ج٢٥، ص٢٩٨) مقامًا تخاطبيًا ملائمًا لإجابة لامزة ومُعرّضة، فـ"ليلة لا ناهٍ ولازاجر" (الأصفهاني،١٩٩٢، ج٢٥، ص٢٩٨) تشي بقتل المنتصر لوالده المتوكل، ولايخفى ما في هذه الإشارة من الذّم والانتقاص وتتبع السقطات، ونلاحظ من هذين الخبرين أن الإجابات المفحمة قد تسببت في إنهاء الحوار وإغلاقه.

وحين يعدل المتكلم في كلامه إلى التعمية ونبذ المبتذل يحقق سلطة على الآخرين؛ لأنه عالم بمراد الكلام والآخر جاهل به، "ولعلّ الألغاز والأحاجي أقدر على المباغتة لأنها تمتحن المخاطب، وتجعله في وضع العاجز المغلوب الذي يعسر عليه في كثير من النماذج الظفر بالحلّ وإدراك المقصود من الكلام، بل إنه يظل مدينًا للمتكلم تابعًا له حتى يقع فكّ الشفرة وبلوغ الجواب" (ابن علي، ٢٠١٣، ص١٩٥) ومن ثم كانت هذه الغاية الإفحامية منسجمة مع ماشاع في المجالس من خصومات ومنافسة.

التندر :

مكّنت الألغاز والمعمّيات من الزراية بالآخرين والسخرية منهم بطرائق ملتوية وخفية، جاء في الأغاني: " يا أبا عطاء، إن إنسانًا طرح علينا أبياتًا فيها لغز، ولست أقدر على إجابته البتة ومنذ أمس إلى الآن ما يستوي لي منها شيء ففرّج عني. قال: هات، فقلت:

فما اسم حديدة في رأس رمح دوين الكعب ليست بالسنان

فقال أبو عطاء:

هو الزز الذي إن بات ضيفًا لصدرك لم تزل لك عولتان

قلت: فرّج الله عنك، تعني الزج وقلت:

فما صفراء تُدعى أمّ عوف كان رجليتها منجلان؟

فقال:

أردت زرادة وأزن زنّا بأنك ما أردت سوى لساني"

(الأصفهاني،١٩٩٢، ج ١٧، ص٣٣٢).

وتناسل الألغاز في هذا الخبر وتناميها له علاقة وثيقة بمقصدية السائل، وهي الكشف عن لكنة أبي عطاء والسخرية منه، وقد كانت الإجابة عن البيت الملغز مولدة للعديد من الألغاز والأحاجي، والطريف في هذا الخبر أن الإجابة عن هذه الألغاز الشعريّة جاءت في بيت شعري واصف وشارح للإجابة.

ويكشف الملفوظ الحواري الأخير "فقال: أردت زرادة وأزن زنّا .. بأنك ما أردت سوى لساني" عن إدراك للمقصود وفهم للغاية، فلم تكن الأسئلة في هذا الخبر لاختبار السندي في معرفته وفكره، بل جاءت للعبث به، من ثمّ كان تعقيب السائل في كلّ مرة موضحًا إجابة السندي، نازعًا عنها ما لحقها من أثر اللحن أبلغ في الدلالة على الرغبة في النيل منه وإضحاك الآخرين عليه.

ولئن كانت هذه الغاية مألوفة في مجالس اللهو لخلق المؤانسة والانبساط، فإنها في الوقت نفسه كاشفة عن النسق

الثقافي والفكري ومعبرة عنه، فكثيرًا مايحيل لفظ "السندي" على موضوعات للتندر ومن بينها نوادر اللحن، وظاهر هذه المحاكاة لعيوب النطق الهزل والمزاح، لكنها تحمل في طياتها الانتقاص من الآخر وتبرهن على تفوق العربي.

من هنا ندرك أن المعميات والألغاز سياسة قولية، يعمد إليها المتكلم قصدًا لغايات مختلفة مرتبطة بمقام التواصل ومقتضياته، وقد يبدو للناظر أن قصد التعمية وإرادة الخفاء والمواربة مناهضان لما تنشده تلك المجالس من طلب للتسلية والتخفف من الأعباء اليومية، ولعلّ هذا المطلب انعكس على اصطفاء الجلساء وطريقة لباسهم، فمنعت تلك المجالس دخول ثقيل النفس لئلا يعكّر صفوها وينغص لذّتها، وتزيا الجلساء بغلالة رقيقة خفيفة دون احتشام.

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا تنصرف مجالس الأنس في خطابها إلى الألغاز والتعمية؟ وكيف يكون الغموض وكدّ الذهن متعة تضاف إلى جملة متع المجلس؟

وظائف الأقوال الملغزة والمعماة في مجالس اللهو:

سنعرض في هذا الموطن من الدراسة لأبرز الوظائف التي تضطلع بها الألغاز والمعميات في مجالس اللهو، ونذكرها فيما يلي:

ماوراء الخطاب (Metalangage):

ارتبطت الألغاز والمعميات بما تنطوي عليه من معان مخبوءة ودلالات مضمرة، بتناول الموضوعات المسكوت عنها والكشف عن المهمش والمحظور، بطريقة ماكرة تعلن وتخفي في الآن نفسه، وبلغة تستبطن المعنى وتومئ إليه.

ويرمي المتكلم من خلالها إلى كسر حاجز الممنوع والانعتاق من رقابة السلطة، ذلك أن بعض السياقات تتطلب القول المعمّى، وتحتم حجب الدلالة المرادة والإلماح لها إلماحًا تلطفًا وتأدبًا ورهبة. فقد يعجز المتكلم -أحيانًا- أن يستعمل لغة صريحة وعبارة مباشرة للتعبير عن بعض الموضوعات المحظورة، فيلجأ إلى الإخفاء بالرمز والتكنية والاستعارة، للإفلات من السلطة أيًّا كان نوعها (سياسية، أخلاقية) واستجابة للمواضعات الاجتماعية، والقيم الثقافية التي تشكل ضاغطا على المتكلم، ويبدو ذلك جليًا فيما يتعلق بالموضوعات غير اللائقة؛ ولذا ينزع المتكلم في تناوله لموضوع الجنس إلى تحاشي التصريح والاختباء خلف الإشارة والتلميح متوسلا بالكناية وماشابهها، وهذا كله يكشف عن قدرة اللغة، ويبرز جانبًا من خصائها وأساليبها التي تقوم على التفكر والتدبر وإعمال النظر.

الإمتاع والترفيه:

شكلت الألغاز والأحاجي والأقوال المعماة ركنًا متينًا وعنصرًا مهمًا من عناصر مجالس اللهو والأدب، ويبرهن ذلك السعي في اختيار الندماء الموصوفين بسرعة البديهة وحدّة الذكاء فـ"العيش كلّه في الجليس الممتع " (كشاجم، ١٩٩٩، ص٩٥) مما يتناسب مع طبيعة هذه الألعاب اللغوية والرياضات الذهنية التي يرجى منها تحقيق اللذة والإمتاع في تلك المجالس.

لذا ارتبطت الألغاز والمعميات بأدب الظرف والظرفاء، وإذا استظهرنا الأشخاص المنخرطين في صناعة هذا التعبير المواربة، وجدنا أن سماتهم الشخصية تمتاز بالطرافة والغرابة والتهتك، فأبو نواس شاعر ماجن خليع يتغنى بالخمرة ويتغزل بالصبيان، وأبو العبر وأبو دلامة اشتهرا بالتحامق، كما أسهمت لكنة أبي عطاء في جعله محط سخرية وتندر، بالإضافة إلى طائفة من الجواري الظريفات الشاعرات.

كلّ ذلك يضيء مقاصد استعمال هذه الأساليب التي يغلب عليها المدارة والتلميح، ويوضح الدور الذي تقوم به هذه الأقوال المعماة والملغزة في مجالس الأنس، إذ كانت وسيلة للتندر والتسلية والتحرر من أعباء الحياة والتخفف من جديتها، والتحول عن الكدر والضيق والتجهم إلى الانبساط والمرح فـ "مقاساة الدنيا لا تتأتى إلا باستجلاب شيء من السرور"(الثعالبي،٢٠٠٢، ص١٥)

وقد كشفت دراسة كورنريخ (٢٠١٤) للمتع البشرية أن التحرر من حياة الجدّ والصرامة والازدحام والعمل إلى ماينقضها يحقق "متعة مرتبطة باستعادة التوازن، المحافظة على الاستقرار الداخلي" (ص٢٥).

الوظيفة الثقافية:

كشفت الألغاز والمعميات عن جانب من جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية في عصر نصوص المدونة، فهذا الأدب الشفوي مزج بين مكونين ثقافيين، أولهما: الترف الحضاري والفكري الذي مكّن لمسارب المتعة والإدهاش والطرافة أن تتسلل إلى الحياة العباسية بمختلف جوانبها المادية والعقلية، ومن مظاهر الترف ما لمسناه في الأخبار من ميل إلى الظرف والهزل والاستمتاع باللذات والتفنن في ابتكارها، وقد تجلى ذلك فيما تميز به رواد المجالس والندماء من سمات من قبيل: الأخف روحًا و الأحضر نادرة، وغدا الظرف صناعة لها اشتراطاتها وقوانينها التي فسّرها الوشاء في "الموشى" وكشاجم في "أدب النديم".

وبرزت تلك الروح الظريفة في مؤلفاتهم التي اتخذت الجمع بين الجد والهزل منهجًا تأليفًيا، وكان من نتاج هذا العصر أن برز فن " المحاجاة" على لسان الجواري الشاعرات، وهي أحاجٍ ضاربة في الهزل بما تنطوي عليه من معان مجونية.

ثم إنّ ما تتطلبه هذه المحاجاة و الألغاز من إعمال ذهني يحيل إلى المكون الثقافي الثاني الذي أنتجها، فهي سليلة الاعتناء بالفكر والإعلاء من قيمة العقل، فلذّة التفكير والتدبر وإطالة النظر أسهمت في ذيوع هذه الألعاب الفكرية، بالإضافة إلى المناظرات والمجالس العلمية والمحاورات والمفاخرات التي طالت مختلف الموضوعات جليلها وسخيفها.

خاتمة

يتضح مما قدمنا أن الألغاز والأحاجي والمعمّيات تولدّت من المجالس والمسامرات والمفاكهات، منسجمة مع مراميها من طلب المتعة والتسلية بأفانينها المختلفة، وكشفت الدراسة أن للجهد المبذول في حلّ القول والملغز وتأويله لذّة ومتعة غير متحققة في الخطاب المتصف بالوضوح، ومنشأ هذه اللذة إدراك المعنى بعد غموضه واستغلاقه واستعصاء الفهم؛ ولذا فإن القول الملغز يفتح بابًا للذّة التي تتحصل من التمويه والإغواء ومن ثمّ الكشف، وتبين أن للتعمية مراتب وضروبًا فمن الألغاز ما لا يحتاج إلى طول تفكير وإمعان نظر للوصول إلى المعنى وبعضها لايدرك إلا بعد كدّ ذهني ومكابدة بسبب إيجازها واختزالها الشديد، وهي خاصية مضطردة في جلّ الأقوال المعمّاة.

ارتبطت الألغاز والمعميّات بالمقام، فهي تنشأ في مقام التخاطب لأسباب وداوعٍ منها: التهيب والمراوغة، فالألغاز والأقوال المعمّاة تضللٍ المتلقي وتراوغه، تنكشف له وتنحجب في الآن نفسه، حتى تثير فضوله وجسارته لتفسيرها، وبذلك تمنح المتكلم هامشًا من الحرية، وللمتلقي نوعًا من التشويق، بالإضافة إلى اضطلاع الألغاز والمعميات بوظائف مختلفة منها: الإمتاع والترفيه.

قائمة المصادر والمراجع العربية:

ابن الأثير، ضياء الدين، (١٩٦٢) *المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر*، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، القاهرة: دار نهضة مصر.

ابن رمضان، صالح، (١٩٩٢) *المعريّ ورسالة الغفران*، تونس، دار اليمامة.

ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، (٢٠١٣) *العقد الفريد*، (ط.٤)، بيروت، دار الكتب العلمية.

ابن علي، جميل، (٢٠١٣) *الأجناس الوجيزة في النثر العربي القديم*، سوسة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

ابن منظور، محمد بن مكرم، (١٩٩٧) *لسان العرب*، بيروت، دار صادر.

الأصفهاني، أبو الفرج، (١٩٩٢) *الأغاني*، (ط.٢)، بيروت، دار الكتب العلمية.

أوريكيوني، كاترين كيربرات، (٢٠٠٨)، *المضمر*، ترجمة: ريتا خاطر، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.

أونج، والتر، (١٩٩٤) *الشفاهية والكتابية*، في سلسلة عالم المعرفة، ترجمة: عز الدين البنا، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون.

البغدادي، عبد القادر، (١٩٩٧) *خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب*، (ط.٤)، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي.

البهلول، عبدالله، (٢٠١٠) استراتيجيات السكوت والإسكات، في محمد الشيباني *المسكوت عنه* (١٢٧-١٧٥) تونس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس.

الثعالبي، عبد الملك، (٢٠٠٢) *اللطف واللطائف*، (ط.٢) بغداد: دار الشؤون الثقافية.

جورج، روبرت والآن دندس، (٢٠٠٨) نحو تعريف بنيوي للغز، ترجمة: دعاء كامل، *مجلة الفنون الشعبية*، الهيئة العربية العامة للكتاب، العدد(٧٦/ ٧٧)، (٢٠٠٨)، ٩٥- ١٠٢.

خليفة، حاجي، (١٩٩٢) *كشف الظنون*، لبنان، دار الكتب العلمية.

شارودو، باتريك ومانغونو، دومنييك، (٢٠٠٨) *معجم تحليل الخطاب*، ترجمة: عبد القاهر المهيري وحمادي صمود، تونس: المركز الوطني للترجمة.

القرطاجني، حازم، (٢٠٠٨)، *سراج الأدباء ومنهاج البلغاء* (ط.٣)، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، تونس، الدار العربية للكتاب.

القيراوني، ابن رشيق، (١٩٨١) *العمدة في محاسن الشعر ونقده*، (ط.٣)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الجيل.

كشاجم، أبو الفتح محمد، (١٩٩٩) *أدب النديم*، القاهرة: مكتبة الخانجي.

كورنريخ، شارل، (٢٠١٤) *تطور المتع البشرية، ترجمة: محمد حمود*، بيروت، المنظمة العربية للترجمة.

ميتز، آدم، (د.ت) *الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري*، (ط.٥)، ترجمة: محمد أبو ريده، بيروت، دار الكتاب العربي.

المراجع الأجنبية:

BOSWORTH, C.E., DONZEL, VAN., LEWIS,B., & PELLAT, CH. (1986). *The Encyclopaedia of Islam*.Leiden: E.J.Brill